المقال الخامس

حرية الاختيار ... رمز الوجود والبقاء*

قال لصاحبه وهو يحاوره . كن ليبرالياً كما تشاء تؤمن بحرية الفرد المطلقة ، لكن تذكر أن للحرية جانبين ، أحدهما جانب التحرر من قيود المرض والخوف والقهر ، لكن هذا التحرر الذى يشعر المرء بالتفرد ليقول ما يشاء يغدو تحرراً منقوصاً ، إن لم يرتبط بالحرية المسئولة فى الاختيار والفعل، بما يضمن لنفسك ولمجتمعك الوجود والبقاء ، والاعتزاز بالهوية والانتماء ، ويتيح لكم إمكانات التقدم والنماء على الآماد القريبة والبعيدة .

واستمر فى حواره يقول : كن انفتاحياً ، أو تنويرياً أو اشتراكيا ، أو مبدعاً ، أو من أهل الحداثة أو مابعدها ، كن كما تشاء من أى من هذه المنطلقات الفكرية مستمتعاً بحرية التفرد والانعتاق من قيود المرض

(*) مقال نشر فى أواخر عام ١٩٩٤ بمناسبة مشاركة بعض المثقفين المصريين فى حوارات سرية مع مجموعة من الإسرائيليين والأمريكيين فى بعض العواصم الأوربية .

والخوف والقهر ، لكن عليك أن تكون واعياً بمن أنت ، وما خياراتك وسط السيول الجارفة .

وأراد أن يطرح على صاحبه مجموعة من القضايا التى يبدو للبعض أنها لا تتعارض مع توجهاته التنويرية أو الليبرالية أو التحررية أو غيرها من بعض مايملأ صحفنا ووسائل إعلامنا من قضايا ما يسمى بحرية الفكر فى بعض المسائل الجزئية ، دون أن تتسق أو تتواءم أو تتكامل مع قضايا أخرى فى الإطار العام الذى أشرنا إليه من حرية الفكر فى نهاية المطاف والتحليل . . إنما يحكم على سدادها بقدر ما تضمن لك ولمجتمعك مقومات الوجود والبقاء (أقطاراً وأمة) ، وبما يمكنه من الوعى بخصوصية الهوية والانتماء (إلى ثقافة عربية إسلامية احتضنت تراث حضارات عدة فرعونية ويونانية ورومانية وقبطية وإسلامية وتكنولوجية) وبما يتيح له التقدم والنماء (من خلال تنمية طاقاتكم الذاتية فى إنتاج السلع والخدمات وإنتاج المعرفة ومختلف صنوف الثقافة وتوفير مقومات الكرامة لكل إنسان) . واستمر فى حواره مع صاحبه : تتفق معى ـ ياصاحبى ـ فى قضية مساواة المرأة بالرجل فى حقوق المواطنة وواجباتها، لأن النساء شقائق الرجال ، وتتفق معى فى إدانة مختلف صور العنف والإرهاب ومقاومتها بمختلف الوسائل، وتتفق فى كثير من أبعاد الديمقراطية وترسيخ قواعدها هدفاً ووسيلة . وقد نتفق مع ضرورة تنمية التفكير العملى والعمل الإبداعى ، وقد نتفق مع دور القطاع الخاص فى التنمية فى إثارة التنافس السليم من أجل جودة الإنتاج ومعقولية الأسعار . وقد نتفق مع مفردات أخرى كثيرة .

ومع ذلك فإنى أنظر فى النهاية إلى اتفاقنا واختلافنا فى ضوء ما يحقق الأضلاع الثلاثة للتنمية الحقيقية والمطردة وهى أضلاع البقاء والانتماء والنماء . ومن خلال هذا الإطار أجد أننا فى تناقض مع كثير من المتغيرات التى لم تعد تبقى لنا على ثوابت من خلال مايجرى فعلا مع تحركات عملية السلام . هل سمعت أن الوجود فى عالم اليوم ـ كما يقول قادة إسرائيل ـ هو وجود مصالح وأسواق، وليس وجود أوطان وقوميا؟ ومن ناحية أخرى . . فإنه لابد لنا من أن نذوب أو نندمج مع العولمة والكوكبة ، وكذلك فيما يعرف بالشرق الأوسط الجديد . ولاجديد فيه إلا التفاعل مع إسرائيل، والدخول معها فى علاقات تجارية ومشروعات اقتصادية، باعتبار ذلك هو المنقذ من التخلف وتدنى الأوضاع المعيشية للإنسان العربى المهدد بالسلاح النووى الصهيونى .

وتلك كانت أحد أهداف مؤتمر القمة للشرق الأوسط وشمال أفريقي، وليس له من القمة إلا حضور رئيسين أو ثلاثة ، لكنه قمة، لأن الوفود العربية ليست على قمة رأسها القلنسوة اليهودية، مع أخذ الصور التذكارية . ألم تسمع أن إسحق رابين قد اقترح على أحد بعض العرب أن يكون مثل هذا المؤتمر بديلاً عن جامعة الدول العربية ، خصوصاً وأن عملية السلام سوف تقضى على مبرر وجود تلك الجامعة، لقد هان بيت العرب على العرب ، وضاعت مؤتمرات القمة التى جسدت طموحاتهم فى الصف الواحد من أجل الكرامة والمصير المشترك، بل ذهب بعضهم إلى اعتبار مقاومة الاحتلال من ضروب

الإرهاب، كما تسميه إسرائيل، وأنه من المخاطر التى تهدد أمن إسرائيل، متجاهلين أمن العرب وما يهدده .

أتدرى يا صاحبى أن معاهدات سلام قد وقعت ، بيد أنه إذا كان المجد لله فى الأعالى ، إلا أن سلاماً على الأرض لم يحدث . فمازالت أرض فلسطين ـ جوهر الصراع العربى الإسرائيلى ـ محتلة تطغى المستعمرات على أكثر من نصفها فى الضفة والقطاع ، والقدس . . أصبحت موضعاً للصراع بين العربى والعربى ، وتعلن وتكرر إسرائيل أنها عاصمتها الأبدية الموحدة. ويطالب كثير من « التحرريين » بالقضاء على كل صور المقاومة فى الأرض المحتلة ،لأنها تعكر صفو السلام، ويطالب «التحرريون» بإعادة تأهيل أطفال الحجارة، لأنهم تعودوا على عادات غير متحضرة بإلقاء الحجارة والزجاجات على جنود الاحتلال الإسرائيلى .

وتتكاثر مشاهد العناق بين العرب وعدو الأمس، من خلال الزيارات والمهمات والبعثات ممن انقلبوا إلى صداقة حميمة، لم يشهد التاريخ لها مثيلاً فى سرعة تحولها، وما انتهت إليه . وحتى حين نصنف الماضى ونشير إلى حروبنا مع إسرائيل لا نذكرها بالاسم ـ أدباً وخشية وتلطفاً ـ وإنما نشير إليها باسم العدو ، ونجد ذلك حتى فى الكتب المدرسية المقررة فضلاً عن الاحتفاليات بنصر أكتوبر المجيد وفى الأحاديث الإذاعية .

ثم ألا ترى معى أن بيان مؤتمر القمة الاقتصادى لم ترد فيه كلمة عن

العرب المشاركين فيه ، وهم أمة يقترب عدد سكانها من عدد سكان الولايات المتحدة ، ثم إن البيان الختامى للمؤتمر كان متطابقاً إلى حد كبير جداً مع بيان وزير الخارجية الأمريكى فى منطلقاته وتوصياته . وما قولك ـ يا صاحبى ـ فى سوق المشروعات البترولية والطرق والقنوات والصناعات وبنوك التمويل ، وكلها مشروعات لا ينتظر أن تستفيد منها مصر ، أو الأقطار العربية ، ومعظمها سوف يكون نصيب الأسد فيها لإسرائيل على حساب المصالح العربية . . فماذا ينفع التحرر إذا تهاوت أضلاع مثلث التنمية العربية بقاءً وانتماءً ونماءً فى إطار سلام ما يزال أوراقاً أكثر منه واقعاً ، وحكاماً أكثر منه شعوباً، ووعوداً أكثر منه تجسيداً . ومن منا لا يحب السلام ويسعى لتحقيقه والحرص على تدعيمه، شريطة أن يقوم على إنهاء الاحتلال واسترداد الحقوق ، لا على وعود الدولارات والمعونات والأمر الواقع .

بالإجلال والتقدير يا صاحبى نذكر تلك الكتب المدرسية التى قرأنا فيها أشعار الكرامة، مقرونة بالحرية والاعتزاز :

لا تسقنى ماء الحياة بذلةٍ

بل فاسقنى بالعز كأس الحنظل

وشاعر آخر يصيح :

ولا يقيم على ضيم يُراد به

إلا الأذلان عير الحى والوتدِ

هـذا على الخسـف مربوطٌ برمتـه

وذا يُشـجُّ فـلا يـرثـى لـه أحـــد

. . وا قدساه . . وا قدساه . . ستظل (الأرض بتتكلم عربى) بعد أن طغت العبرية فى كازا بلانكا .

obeikandl.com